

## قبائل الجرمان : أصولهم وثقافتهم

حاتم الطحاوي \*

هناك ثلاثة مظاهر أساسية قامت بتشكيل تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، هي على الترتيب: التراث الكلاسيكي، والديانة المسيحية، ثم الغزوات الجرمانية.

فقد ورثت أوروبا آنذاك التراث والحضارة اليونانية، من علوم وآداب وفنون دخلت في نسيج الحضارة اللاتينية الجديدة. كما أن ظهور المسيحية في العالم الروماني واعتراف الإمبراطور قسطنطين العظيم بها دينا رسميا في القرن الرابع الميلادي قد زود التاريخ الأوروبي برافد جديد بعث فيه الحيوية الفكرية والسياسية. إن انتصار المسيحية في النهاية على الديانات الوثنية، أعلى من شأن الكنيسة ورجال الدين، الذين حاولوا ترسيخ نظرية سمو الكنيسة على كل ما عداها. وهو ما أوجد صداما استمر لقرون طويلة -هي عمر العصور الوسطى الأوروبية- مع الأباطرة والملوك والأمراء العلمانيين. حدث هذا على الصعيد الثقافي مما ساعد على إيجاد تراث لاتيني مسيحي جديد.

وعلى الصعيد السكاني فإن قبائل الجرمان التي إنتالت من أقصى الشمال الأوروبي البارد إلى الوسط الدافئ، قد مثلت رافدا جديدا أعاد تشكيل التركيبة السكانية الأوروبية من جديد. كما حملت تلك القبائل معها أيضا تراثها الخاص الذي انصهر في بوتقة جديدة مع التراث الكلاسيكي والتعاليم المسيحية، ليصبح القارة الأوروبية بصبغة جديدة طوال فترة العصور الوسطى.

في البداية لابد لنا من التعريف بالجرمان، الذين كانوا أهم القبائل البربرية Barbarians التي جاورت تخوم الإمبراطورية الرومانية. فقد أطلق الرومان تلك الكلمة على كافة الشعوب التي أحاطت بهم من الجهات الأربع. وهي تعنى الشعوب البدائية المتخلفة عن ركب الحضارة اليونانية والرومانية.

كما أطلق الرومان على جميع القبائل التي كانت تعيش على حدود نهري الراين والدانوب اسم الجرمان Germani والحقيقة أن هذا الاسم كانت تحظى به قبيلة واحدة منهم. كما كانت هناك قبيلة أخرى تحمل اسم الألماني Alemanni. تلك الكلمة التي تم إدخالها إلى اللغتين الفرنسية والأسبانية للدلالة على الألمان. غير أن الجرمان أطلقوا على أنفسهم كلمة، Theuti التي تعنى (الشعب). وهي الكلمة التي أدخلت إلى الألمانية وأصبحت أساسا لكلمتي Deutsch و Teuton الحديثتين.

ونتيجة للشعور القومي الذي تمكن من المؤرخين الألمان، فقد عكفوا على دراسة هجرات الشعوب Voelkerwanderungen الجرمانية، واعتمدوا بشكل أساسي على

علم الآثار لتفسير وجود الجرمان في القرن الأول قبل الميلاد. وساعدهم ذلك على إيجاد الموطن الأول للجرمان وهو جزيرة إسكندنافيا (الدانمرك – النرويج – السويد)، قبل أن يقوموا بهجرات عديدة نتيجة تزايد أعداد السكان وضغط الظروف المناخية، فضلا عن الحروب المتبادلة مع جيرانهم والتي اقتضت ضرورة طرد الطرف الخاسر، فاتجهوا إلى وسط أوربا حيث نهري الراين ثم الدانوب، بعد أن نجحوا في هزيمة الشعب الكلتي Celts الذي لم يكن يتميز بأنه شعب محارب كالجرمان.

وفي القرن الأول قبل الميلاد أيضا، تمكن يوليوس قيصر Julius Caesar من إيقاع الهزيمة بالجرمان ودفعهم خلف حدود نهر الراين. غير أنهم عادوا في القرن الثاني الميلادي للاستقرار في حوض الدانوب. وكانت أشهر قبائلهم آنذاك هم القوط الشرقيون Ostrogoth (الساطعون)، والقوط الغربيون Visigoth (الحكماء).

### المصادر الأساسية لتاريخ الجرمان

1- الدليل الأثري الذي ساعد الباحثين الأوروبيين على الوصول إلى الموطن الأساسي للجرمان.

2- يوليوس قيصر وكتابه عن فتح بلاد الغال، والذي تحدث في جانب يسير منه عن قبائل الجرمان وعاداتهم.

3- المؤرخ الروماني تاكيتوس Tacitus وكتابه المسمى جرمانيا Germania الذي قام بتأليفه عام 98م. وهو يعد أفضل كتاب عن تاريخ الجرمان وعن بنيتهم السياسية وعاداتهم الاجتماعية آنذاك. وعلى الرغم من أن تاكيتوس لم يزر مناطق التخوم الرومانية أو الجرمانية المواجهة فإنه نجح في جمع معلوماته من أفواه الجنود الرومان العائدين من الجبهة الجرمانية، فضلا عن اطلاعه بشكل كاف عن الوثائق الرومانية الرسمية.

على أننا يجب أن نتذكر دائما أن الأرسقراطي الروماني تاكيتوس لم يقم بتأليف كتابه من أجل سبر أغوار الشخصية والمجتمع الجرمان، بقدر ما كان هدفه إبراز التناقض بين أولئك الجرمان البسطاء وفضائلهم، مقابل الرومان المراوغين والمنحطين أخلاقيا.

4- الشعر الشعبي الجرمانى. وهو ما يمكن استخلاصه من الملحمة الجرمانية الوحيدة التي عاشت حتى وصلت إلينا، المسماة بيولوف Beowulf. التي قام بتدوينها فيما بعد أحد رجال الدين في القرن الثامن الميلادي، والتي تكشف بجلاء عن مثل وأخلاقيات الطبقة العليا في المجتمع الجرمانى.

5- مجموعة القوانين الجرمانية. والحقيقة أنها لم تتمثل قوانيننا بالمعنى الحديث. وإنما هي مجرد تقارير مكتوبة توضح العرف الجرمانى السائد آنذاك.

وعلى أية حال، فحسب رؤية تاكيتوس، فإن الآراء قد تعددت حول اشتقاق كلمة الجرمان، و عما إذا كانت قد جاءت من كلمة رجل الحرب، أو المحارب wehr-mann.

كما ذكر سترابو strabo أن الجرمان Germani و مفردها Germanus قد استعملت بمعنى الأخوة، للتمييز بينهم و بين الشعوب القبلية الأخرى، كالكلت و غيرهم.

و يبدو الجرمان -حسب تاكيتوس أيضا- في الأصل عناصر سكانية هاجرت من آسيا إلى أوربا لتستقر فيما يعرف بالأراضي الألمانية الآن. قامت بالحفاظ على جنسها، و لم تتصاهر مع القبائل الأخرى. وهو الأمر الذي ميز رجالها بصفات معينة، كالعيون الزرقاء الحادة، و الشعر الأشقر، و جسم رياضي يساعدهم على أداء الأعمال الشاقة.

وحسب تاكيتوس، فإن نهري الراين و الدانوب يفصلان بلاد الجرمان عن بلاد الغال، كما تفصلها الجبال الوعرة عن داشيا. وأرضها تكسوها الغابات وتغطيها المستنقعات بشكل عام. وتتميز بمطرها الثقيل ورياحها الشديدة. وأرض الجرمان صالحة لزراعة الحبوب، و لا تصلح لزراعة أشجار الفاكهة. وتكثر فيها الماشية، فضلاً عن وجود العديد من مناجم الفضة، وهو ما جعل معظم أو انيهم منها. كما جرى تقديم الفضة كهدايا لأن قيمتها في نظرهم كقيمة الأواني الفخارية.

### النظام السياسي للجرمان

يقوم السكان الجرمان بانتخاب ملكهم، الذي لم تكن له سلطة مطلقة، و يقوم بمساعدته العديد من القادة الذين يتم اختيارهم عبر الكفاءة و المقدرة الحربية ممثلين مجلس الأتباع أو الكوميتاتوس Comitatus.

وكان القائد الجرمانى يؤلف فرقة العسكرية من الأهل و الأقارب، حتى يستطيع سماع صوت عويل نسائه و صراخ أطفاله، وذلك من أجل استثارة حماسه في المعركة.

وكان القادة يتداولون في بعض المسائل المتعلقة بالسكان الجرمان. أما القضايا الكبرى، فكان يجب أن يشترك في مناقشتها جميع أفراد القبيلة الذين كان يتوجب عليهم أيضاً تقديم الهدايا المؤلفة من الماشية و المحاصيل الزراعية، أو من الخيول و الأسلحة الفاخرة و الأدوات المنزلية إلى قادتهم، فضلاً عن السلاسل الذهبية أيضاً.

وكان الجرمان يحبون الاجتماع عند ظهور الهلال، أو عند اكتمال البدر كما كانوا يؤرخون مواعيتهم بالليالي وليس بالأيام كما كان يفعل معاصروهم الرومان. وهم في هذا يشبهون العرب في الجاهلية الذين كانوا يستخدمون النجوم و الأهلة.

ويرأس الملك الاجتماع الكبير لهم، أو أحد النبلاء من كبار السن الذي كان يجب عليه أن يكون مفوهاً، متميزاً بالقدرة البالغة على الخطابة من أجل التأثير على مستمعيه.

وإذا تم عرض اقتراح نال موافقة المجتمعين، كان على الجرمان رفع الرماح. و ضرب بعضها ببعض. أما الذين يرفضونه فإنهم يعبرون عن ذلك عبر آيات التذمر و الدمدمة.

وكان هذا الاجتماع يناقش المسائل الكبرى داخل المجتمع الجرمانى، فعلى سبيل المثال تعرض عليه الجرائم الكبرى التي تستحق عقوبة الإعدام. كما كان يتم شنق الخونة

والفارين من الأعمال العسكرية على أفرع الأشجار حتى يكونوا عبرة أمام الجميع. أما المجرمين الآخرين فيعاقبون عبر الدفن في المستنقعات الطينية مع وضع شباك فوقهم.

وفلسفتهم في هذا تكمن في أن مرتكبي الجرائم الكبرى يجب أن يتم التشهير بهم، أما الأعمال السيئة التي تقترب بالخزي والعار فيجب أن تدفن حتى لا يراها أحد.

ويدفع عن الجرائم الصغيرة عدد معين من الخيول ورؤوس الماشية. على أن يتم دفع نصف الغرامة للملك أو الحكومة، والنصف الآخر للمجني عليه أو إلى أسرته.

ونظراً لأن الجرمان كان يرث خصومات أبيه، فقد كان يمكنه التكفير عن عمليات القتل بدفع تعويض كبير من الماشية والأغنام.

ونتيجة للأخطار التي كان السكان الجرمان يتعرضون لها دائماً بسبب الشعوب الرعوية المحيطة بهم، فقد أرغموا على أداء أعمالهم العادية دائماً وهم يتمنطقون بسلاحهم، و على أهبة الاستعداد للقتال.

وطبقاً لتاكييتوس، كان يجب على الجمعية العمومية للجرمان اختبار كافة الرجال المؤهلين لحمل السلاح. فإذا استحق أحد الشبان ذلك. يقوم أحد الرؤساء أو الأب أو أحد الأقارب في الجمعية العمومية بتقليده الرمح والدرع، ليصبح ذلك الشاب المحارب عضواً في الدولة، و ليس في الأسرة فقط.

بعد ذلك يتم ضم هؤلاء الشبان أو المحاربين الجدد إلى تبعية أحد القادة الكبار أصحاب الخبرات الطويلة الذي يمنحه القانون الجرمانى حق وضع أتباعه في درجات. مما أدى إلى تنافس الشبان للحصول على الخطوة والمكانة الأولى لدى قائدهم.

فضلاً عن ذلك كان هناك تنافس حاد بين القادة على ضم أكبر عدد من الأتباع الجدد. وكان من سمات ومزايا القادة والرؤساء أن يحاطوا بأكثر عدد من الأتباع الشجعان، إذ مثل هذا مظهراً للزينة والفخار في حالة السلم، وعنصراً للأمان عند نشوب الحرب.

وكانت شهرة القائد وأتباعه تعبر الحدود إلى القبائل المجاورة، فيصبح مقصداً للسفارات، التي كانت تطلب وده، وتقوم بمنحه الكثير من الهدايا.

وحسب تاكييتوس أيضاً، إذا كان القادة يحاربون من أجل النصر في حالة الحرب، فإن الأتباع كانوا يحاربون من أجل قائدهم ومن أجل الغنائم والأسلاب. لدرجة أنه إذا تقاعس قائد عن القيام بالحرب لفترة طويلة من الزمن، كان أتباعه يقومون بالتخلي عنه والانضمام إلى سيد آخر من أجل القيام بالحرب.

وهكذا يمكن للأتباع الحصول بسرعة على الغنائم، وكذلك الخيول والرماح، فضلاً عن اللوائم السخية والحافلة التي تقام نتيجة لانتصارهم مع قائدهم في المعركة.

وبشكل عام لم يركن الجرمان أبداً إلى الهدوء والدعة. فلم يكن من المتصور أن يحرث

الجرماني قطعة أرض زراعية، ثم يقوم بزراعتها من أجل الحصول على خراجها السنوي. فقد كان من الأيسر له أن يحارب للحصول على الغنائم بشكل أسرع، لدرجة أن الجرماني اعتقد أنه من ضرور التراخي والكسل أن يحصل بالعمل والعرق، على ما يمكنه الحصول عليه بالدماء.

وفي أتون المعارك التي خاضوها، حمل الجرمان السيوف والحراب الطويلة. فضلاً عن حربتي قصيرة تدعى Framea تميزت برأس قصير وحاد، وكذلك بسهولة استخدامها عند الالتحام و الرمي. كما حمل الفرسان في المعركة الحربة والدرع.

وحسب كلمات تاكيتوس الروماني، فإن خيول الجرمان التي اعتمدت عليها فروسياتهم، لم تكن سريعة أو جميلة، أو مدربة على المناورات أو الحركات الحربية مثل خيول الرومان. أما المشاة الجرمان فقد حملوا النبال والنشاب، وارتدى بعضهم خوذة معدنية أو مصنوعة من الجلد. وكان من شروط اختيار المشاة أن يتميزوا بخفة سرعتهم.

واتخذ الجرمان تكتيك التفهقر في المعركة كحيلة للعودة من جديد إلى ميدان القتال، ولم يفسروا ذلك أبداً بأنه بادرة جبن أمام الأعداء.

و في لفظة إنسانية ذات دلالات متعددة، كان المحاربون الجرمان يحملون قتلاهم من أرض المعركة قبل أن يتحدد مصيرها.

على أن أسوا ما كان يلطخ شرف الجندي الجرماني هو التخلي عن دوره في المعركة. فمن يثبت عليه هذا العار تتم معاقبته بالحرمان من حضور الطقوس الدينية، و الانتساب إلى الجمعيات العمومية. لذلك كان الذين يفرون من المعركة يفضلون الموت شناً على الأشجار، بدلاً من أن يعيشوا حياة مجللة بالعار وسط أفراد القبيلة.

وهكذا ظل نظام الأتباع أو الكوميتاتوس Comitatus هو السائد لدى الجرمان حتى نهاية القرن الرابع الميلادي. فكان الرئيس أو الملك على قمته. ثم مجلس الحرب الذي يدين له بالولاء مقابل الخدمات التي يحصل عليها من الملك، الذي كان باستطاعته تأسيس أسرة ملكية يتخذ أفرادها مظهراً مقدساً. على أن نظام وراثته الحكم لديهم لم يكن سائداً بالمعنى التقليدي، فعندما يموت الملك، كان الأتباع يجتمعون من أجل ترشيح أحق أفراد العائلة المالكة بالعرش. ونظراً لأن المجتمع الجرماني مجتمع محارب بالأساس، كان ينبغي أن يتم اختيار أفضل المحاربين لديهم.

### المفاهيم القانونية لدى الجرمان

نتيجة للمنازلات المستمرة التي تحدث بين الجرمان وبعضهم البعض، كان من الطبيعي أن يكون الهدف الرئيسي للإجراءات القانونية لديهم هو منع عمليات الثأر فيما بينهم، فأوجدوا نظام الدية Wergeld.

ونتيجة لعجز المحاكم الجرمانية عن إقامة الدليل على المتهمين الماثلين أمامها في بعض

الجرائم الكبرى كالقتل، كان عليها اللجوء إلى وسائل تعبر عن ثقافة مجتمعية خاصة بالجرمان، كان أبرزها: المحنة، التي يعد الحكم عبرها حكما إلهيا. وكذلك التبرئة بالإيمان وفيها يقسم المتهم على براءته.

وخلال المحنة، كان المتهم يجبر على أن يقبض بيده على قطعة من الحديد الملتهب. ثم يتم تضميدها بعد ذلك. فإذا شفيت الحروق بعد ثلاثة أيام ثبتت براءته. وإذا لم تشف خلالها، كان مذنبا ويستحق العقوبة.

وأحيانا كان يتم وضع يد المتهم في وعاء به ماء يغلي. ثم يؤمر برفع أحد الأحجار من قاع الوعاء. بعد ذلك تضمد جراحه، ويتم فحصها بالطريقة التي سبق ذكرها بعد ثلاثة أيام.

غير أن المحاكمة عن طريق الماء البارد كانت الطريقة الأكثر تفضيلا لدى القبائل الجرمانية التي عبرت إلى انجلترا فيما بعد. إذ كان يلقي بالمتهم في الماء وهو مقيد اليدين والقدمين. فإن غاص كان بريئا، وإذا طفا على السطح كان مذنبا. ومرد ذلك أنهم كانوا يعتبرون الماء عنصرا مقدسا يرفض قبول الشخص المذنب. وفيما بعد، عندما انخرطت القبائل الجرمانية في نسيج النظام الإقطاعي، تم استحداث عمليات النزال والمبارزة بين المدعي والمدعى عليه.

وبعد اعتناق الجرمان للديانة المسيحية، نجحت الكنيسة في فرض قانون ديني على تلك المحاكم القبلية. فأجبرت المتهم على ضرورة المرور عليها قبل التوجه للمحاكمة كي يقسم ببراءته على الكتاب المقدس وعلى الذخائر المقدسة. ثم يتقدم القس منه لكي ينذره بالأذى ويكذب وأن يعترف بذنبه، حتى لا تتعرض روحه للعنة بعد قسمه على الكتاب المقدس.

وكان المتهم الذي تدينه محاكم الجرمان يتم شنقه في نفس المكان. فمن المعروف أن الجرمان هم أول من أدخل عقوبة الشنق إلى أوروبا. غير أنه أحيانا ما كانت المحكمة الجرمانية تأمر بقطع أحد أعضاء المتهم. وهو الأمر الذي قاومته الكنيسة كثيرا لأسباب إنسانية، وكذلك لأن تأخر الطب الأوربي آنذاك كان يجعل الأطباء يفشلون في إنقاذ حياة المتهم، الذي كان يتعرض غالبا لعملية موت بطيء.

ومن الثابت أن لجوء المحاكم الجرمانية إلى الوسيلة الثانية -وهي التبرئة بالإيمان- كان امتيازاً يحظى به كبار الأثرياء وأفراد أنقى السلالات الجرمانية. إذ كان المتهم حينها يكتفي بإنكار التهمة ببساطة بعد أن يقوم بالقسم على ذلك. وكان عليه أيضا أن يقدم شهودا يؤكدون كلامه، حيث يقسمون على أن قسم المتهم كان صحيحا. وبالطبع كان هؤلاء الشهود غالبا من نفس طبقة الاجتماعية العالية.

ويتضح من شروط التبرئة السابقة أن القانون الجنائي الجرمانى كان يتميز بالطبقية الواضحة، التي كانت إفرازا للمجتمع الجرمانى وثقافته. ولا بد أن ذلك يعود في جزء كبير منه إلى أن الأثرياء أبناء الطبقة الاجتماعية العليا كانوا هم الممولين للحرب، وكانوا في

الوقت نفسه محاربين أقوىاء يحتاج إليهم الجرمان في حروبهم الدائمة.

## الحياة الاجتماعية للجرمان

وكما سبق القول، كانت معظم أيام الجرمان موجهة نحو القتال و الحرب مع القبائل المجاورة، فضلاً عن أعمال الصيد التي كانت تراق فيها الدماء أيضاً، عندما يحدث التنافس على الفريسة. وانحصر وقت الراحة لديهم في أيام قليلة للغاية من العام.

وأشار تاكيتوس إلى أن الجرمان كانوا يعيشون متفرقين بجوار المراعي، إذ لم يقوموا ببناء قرى على النمط الروماني، بل شيدوا منازل منفصلة بفناء واسع، مطلية بطلاء لامع يعيشون فيها في الصيف. بينما كانوا يلجأون إلى الكهوف في الشتاء بسبب البرودة القارصة، وكانوا يحملون محاصيلهم أيضاً معهم إلى تلك الكهوف شتاءً خوفاً من تلفها بسبب الأمطار وشدة البرد. وكثيراً ما قامت تلك الكهوف بإنقاذهم من هجمات أعدائهم.

كان الرجل الجرمان العادي يرتدي غالباً عباءة قصيرة يتم شبكها بدبوس، على حين أنها لا تغطي كامل جسمه العاري. بينما ارتدى الأثرياء الجرمان رداءً محكماً يظهر تقاسيم وعضلات أجسامهم النافرة. وفضلاً عن ذلك يقوم الجرمان بارتداء جلود الحيوانات المفترسة بعد صيدها، وأحياناً بعض القطع الملونة من فراء الحيوانات.

و في الأحوال العادية، كان الجرمان يستيقظون من نومهم متأخرين، ويغتسلون بالماء الساخن نظراً لبرودة الجو، ثم يتناولون إفطارهم فرادى، كل على مقعده ومنضدته الخاصة. ثم يقومون بالتمنطق بسلاحهم قبيل الذهاب إلى أعمالهم.

وبشكل عام يتناول الجرمان في طعامهم لحوم الصيد، واللبن الخائر والفاكهة، بينما يشربون عصيراً مستخرجاً من الشعير أو القمح يصنع بطريقة خاصة حتى يصبح كالنيبيذ. كما يحبون شرب الخمر، لدرجة أنه يمكنهم قضاء اليوم كله في احتساء الخمر.

ولم يستطع تاكيتوس الروماني منع نفسه من الإعجاب بالكرم الشديد الذي تميز به الجرمان. فذكر أنه من العار لديهم أن يطرد أحدهم ضيفاً طرق بابهم. بل يجب على الرجل الجرمان أن يقوم باستقبال ضيوفه بترحاب شديد. وأن يعد لهم أشهى الطعام الموجود لديه.

وإذا حدث أن نفذ الطعام لديه ثم فاجأه ضيف جديد كان عليه أن يسطحبه في الحال إلى أقرب جار له، من غير دعوة، دون أية غضاضة من ذلك، لأن الأعراف الاجتماعية اقتضت أنه على الجار أن يقوم بالترحيب بهما معا وإكرامهما. كما جرت العادة أيضاً أنه كان يتم إهداء الضيف أي شيء يطلبه قبيل مغادرته المنزل.

## مكانة المرأة في المجتمع الجرمانى

نتيجة لكون المجتمع الجرمانى مجتمعاً محارباً على الدوام، فقد تعايشت المرأة الجرمانية مع ذلك الوضع، إذ تميزت الأمهات والزوجات بشجاعة بالغة لدرجة أنهن لم يبدين أية

رهبة أو اضطراب عند عودة أبناؤهن أو أزواجهن وهم جرحى بعيد المعركة. كما لعبت النساء دوراً كبيراً في رفض الجerman للهزيمة في ميادين القتال؛ إذ عندما كانت تهم قواتهم بالانسحاب من ميدان القتال، فإن النساء كانت تخرج لاعتراض طريقهم وهن كاشفات لصدورهن. حتى يدرك الجنود الجerman مدى ما ينتظر نساءهم من السبي بعد الهزيمة. وكانت تلك مسألة حساسة للغاية لدى الجerman، الأمر الذي كان يدفعهم إلى العودة ثانية إلى ميدان المعركة والقتال حتى النهاية.

ويذكر تاكتيوس أن الرومان قد أدركوا نقطة الضعف هذه لدى الجerman، فحاولوا التحكم فيهم عبر أسر سيدات جermanيات نوات أصل نبيل، من أجل استخدام ذلك كورقة ضغط عليهم عند التفاوض.

ومن ناحية أخرى كانت النساء الجermanيات تتولين أعمال الزراعة و الاهتمام بالمنزل إلى حين عودة الرجال المحاربين من ميدان القتال.

و في إشارة إلى سطوة المرأة ومكانتها العالية في البناء الاجتماعي الجermanي، يشير المؤرخ الروماني تاكتيوس إلى أنه من الغريب أن الرجل الجermanي كان يتقيد بزوجة واحدة فقط، وذلك حسب قانون الزواج لديهم، دوناً عن باقي القبائل الأخرى. إذ كانت تلك هي القاعدة التي أكدتها وجود حالات استثنائية عرف فيها الرجال الجerman طريقهم إلى الزواج بأكثر من زوجة.

وعلى عكس ما كان يجري في العصور الوسطى. كان الزوج هو الذي يدفع الدوطة و ليس الزوجة. وكانت تتألف غالباً من ثور و جواد، فضلاً عن درع و سيف. وكان على الزوجة أن ترد هدية الزوج بهدية مماثلة على أن تكون من الأسلحة أيضاً.

وتشير لنا العملية السابقة بأنها كانت تعبيراً عن مجتمع محارب على الدوام، ينظر بأهمية بالغة إلى الأسلحة ودورها في القتال. لدرجة أن الاهتمام بها بلغ شأواً كبيراً جعله يدخل في نوع وطبيعة الهدايا المتبادلة بين الزوجين.

وفي إشارة واضحة إلى فاعلية دور المرأة في المجتمع الجermanي، كان عقد القران يجب أن يتم بموافقة الزوجة، التي كان يتوجب عليها بمقتضى ذلك أن تقبل مشاركة زوجها باقي حياتها في السراء والضراء. وكان الرجال الجerman يعتقدون أن في النساء عنصراً من القداسة والنبوة، فلم يجدوا غضاضة في التماس النصح منهن.

وفيم يتعلق بزي المرأة الجermanية، لم يكن يختلف زبها كثيراً عن الرجل، فيما عدا أن لباسها الداخلي يصنع من التيل المصبوغ باللون الأرجواني، على أن تكون السترة الخارجية من غير أكمام، بحيث تترك ذراعيها مع جزء من الصدر عارياً. كما ذكر يوليوس قيصر أن الجerman عموماً يرتدون جلود الحيوانات، أو أثواب قصيرة من الجلد المكسو بالشعر والتي تبقى القسم الأكبر من الجسم عارياً.



وحسب كلمات المؤرخ الروماني تاكيتوس، كانت النساء الجرمانيات يتميزن بالعفة والطهارة، كما أنهن قبل الزواج لم يعرفن أي شيء عن رسائل العشق والغرام المعروفة لدى المجتمع الروماني. ويشي هذا بنوع العلاقات التي شابها الاحترام والتقدير بين الرجل والمرأة في المجتمع الجرمانى.

كما أشار يوليوس قيصر أيضا إلى أن ممارسة الرجل الجرمانى للجنس مع امرأة جرمانية قبل بلوغ العشرين، هو أمر يجلب لصاحبه الكثير من الخزي والعار.

ونتيجة الالتزام الأخلاقى الذى نظم علاقات الرجل بالمرأة فى المجتمع الجرمانى، كان القيام بفعل الزنا نادرا للغاية عندهم. ولذلك فقد احتوى القانون الجرمانى على عقوبة قاسية وعنيفة إزاء ذلك، بحيث يقوم الزوج بنفسه بإنزال العقوبة على زوجته الخاطئة. فمن حقه أن يعاقبها بحلق شعرها، و تجريدها من ملابسها أمام أقاربها. وله كذلك أن يطردها من المنزل وأن ينهال عليها بالسياط، و أن يقوم بالتشهير بها فى شوارع القرية.

ولا ينفع تلك السيدة الخاطئة جمالها أو شبابها أو ثروتها فى المجتمع الجرمانى الذى لا تأخذه أية رحمة أو شفقة بالمرأة الزانية. ولا يوجد من بين الجرمان من يتغاضى عن هذه الخطيئة.

ولقد أعجب تاكيتوس بما وجدته لدى الجرمان من أنه لا يسمح للعذارى بالزواج سوى مرة واحدة. فما دام لها جسد واحد، فلها حياة واحدة وزوج واحد. ويجب ألا تتعدى رغباتها وأفكارها دائرة زوجها ورباط الزوجية.

كما أبدى يوليوس قيصر أيضا إعجابه بمحافظة الجرمان على عفتهم وطهارتهم، على الرغم من استحمامهم معا فى الأنهار. ملاحظا أن من يقوم بذلك لمدة أطول من الشبان يستحق المديح والإطراء من جانب رفاقه. وذلك لأنهم اعتقدوا أن كبح الشاب لشهوته الجنسية يساهم فى حصوله على جسم رياضى ونموذجى، إذ يطيل ذلك من قامته ويقوى من عضلاته ويشد من عوده.

ولم يكن الجرمان يعملون على تحديد النسل. وكانوا يتركون أطفالهم شبه عراة فتنمو أجسامهم قوية وصلبة. وكانت الأم ملزمة بإرضاع أبنائها فلا تتركهم للخدم والمرضعات.

### الحياة الاقتصادية لدى الجرمان

على صعيد النشاط الاقتصادى، مارس الجرمان بعض أعمال التجارة عبر استعمال النقود الرومانية التى وصلت إليهم، وكذلك عبر استخدام أسلوب المقايضة بالسلع المختلفة. وحسب تاكيتوس فهم لا يعرفون مسألة إقراض النقود نظير الرهن أو من أجل الربا.

ولا يعتبر الجرمان من الشعوب الزراعية، لأنهم يعتمدون فى غذائهم بشكل أساسى على اللحوم والألبان. غير أنهم قاموا بالاشتغال بالزراعة فى الأراضى القليلة الصالحة لها، التى يقوم رؤسائهم بتوزيعها عليهم بعد أن يتم تحديد مساحتها وموقعها لمدة عام كامل.

بحيث ينتقلون منها إلى مكان جديد في العام التالي، وذلك حتى لا يتعودوا على العيش في مكان واحد للأبد، وخوفاً من فقدانهم لحماستهم القتالية. وهكذا كان القادة الجرمان يقومون بتوزيع الأراضي على القرى توزيعاً يتناسب مع عدد المزارعين. وكان يجري سنوياً تغيير هذا التوزيع للسبب الذي سبق ذكره، وكذلك نظراً لاتساع مساحة الأرض التي يتمكنون من زيادة رقعته سنوياً بعد نجاحهم في طرد جيرانهم منها.

ولما كانت عناية الجرمان منصبه نحو زراعة القمح فقط، فقد انقسمت السنة عندهم إلى فصول ثلاثة هي: الشتاء و الربيع و الصيف. أما الخريف فلم يكونون يعرفون اسمه أو خصائصه النباتية.

واحتوى السلم الاجتماعي الجرمانى على مجموعة من العبيد والأرقاء، فكان يتوجب على كل عبد أن يدفع لسيده قدراً من الحبوب وعدداً معيناً من الماشية كرمز للعبودية.

و كان السيد يعامل عبده بطريقة جيدة ولا يجبره على الأعمال الشاقة. غير أن ذلك لم يكن ليمنعه من قتله إبان ثورة غضبه، دون أن تكون هناك دية له. كما قام بعض الأسياد بتحرير العبيد التابعين لهم، ليصبحوا في شريحة اجتماعية أعلى من باقي العبيد، غير أن ذلك لم يكن ليمنحهم أي نفوذ داخل القبيلة على الإطلاق.

وكان الجرمان يحبون الاحتفالات، حيث يسهرون ويمرحون، كما يتبادلون فيها الآراء والمداومات. فضلاً عن ذلك فقد كانوا يحبون الرقص، ويمارسونه وهم عراة أو شبه عراة بين السيوف والحراب المشهورة فوق رؤوسهم في جو من الفرح والسرور. كما كانوا يلعبون النرد عبر مقامرات تستمر حتى النهاية. لدرجة أن الواحد منهم قد يقامر حتى على حريته الشخصية، بحيث يسترى الرابح خصمه الخاسر. و جرت العادة بعد ذلك أن يقوم ببيعه بسرعة، حتى يتخلص من الخزي الذي يجلبه إليه هذا النوع من الربح.

## الحياة الدينية لدى الجرمان

يعبد الجرمان العديد من الآلهة مثل عطارد وهرقل ومارس وايزيس. على أن الإله الرئيس لهم هو عطارد، الذي يقدمون له القرابين الحيوانية والبشرية في الشهر التاسع من كل عام، لمدة تسعة أيام، بحيث يقدمون كل يوم تسعة ضحايا من الأسرى والعبيد. كذلك الأمر مع الإلهين هرقل ومارس حيث يجري يتم تقديم القرابين الحيوانية.

كما ذكر يوليوس قيصر أن الجرمان كانوا يعبدون أيضاً آلهة يستطيعون رؤيتها بأعينهم كالقمر والشمس وكذلك النار.

على أن تاكيتوس يدلي أيضاً بإشارة في غاية الأهمية تدل على مدى انتشار تأثير الديانات والآلهة المصرية الفرعونية لدرجة وصولها إلى أقصى الشمال الأوربي. فقد ذكر أن فرعاً من قبيلة السوفي Suevi الجرمانية كان يقدم القرابين إلى الربة المصرية إيزيس. كما أشار إلى أنه لم يستطع تبين سبب أو أصل هذه العبادة الأجنبية، غير أن شعارها الذي

كان على شكل سفينة حربية خفيفة، مما يدل على أن عبادتها مستوردة من خارج البلاد.  
وكانت لدى الجرمان فلسفة خاصة حول معابد تلك الآلهة، فلم يقبلوا فكرة أن تظل حبيسة  
جدران المعابد، لهذا جعلوا من الغابات والأحراش معابد لآلهتهم.

كما آمن الجرمان بالفأل وبالكهانة، وكانت لديهم ألام يصدقونها كما كانت لدى العرب  
قبل الإسلام. وفضلاً عن ذلك كانوا يتفقون مع بعض الشعوب في التفاؤل بأصوات  
الطيور. كما تميزوا بالتفاؤل أيضاً بأصوات الخيول البيضاء التي تحفظ للرعي في تلك  
الغابات والأحراش المقدسة.

وعندما كان يموت أحد السكان الجرمان، كانت تقام له جنازة بسيطة تخلو من التكلف أو  
الفخامة. وكانوا يحرصون على حرق جثث الشخصيات البارزة بأنواع معينة من الخشب.  
كما جرت عاداتهم على أن يلقوا في النار أيضاً سلاح الميت وأحياناً جواده.

وقد عثرت الحفريات التي جرت على قبر والد كلوفيس ملك قبيلة الفرنجة الجرمانية  
على حربته و سيفه و رأس جواده. كما عثر على حدوة وأبازيم ذهبية، وتم الكشف أيضاً  
عن جمجمة يحتمل أنها ترجع إلى سائس الخيول التابعة له أيضاً. غير أنهم لا يلقون في  
النار بملابس الميت أو عطوره. ولا يقيمون قبوراً عالية ذات نصب حجرية، لأنهم اعتقدوا  
أن ذلك بمثابة حمل ثقيل الوطأة فوق الميت. فصنعوا قبوراً عادية تعلوها الأعشاب.

ويطلق الجرمان العنان لعواطفهم في الأحزان، إذ يحدث أن يبكي الرجال عند رحيل  
ميت عزيز عليهم. غير أنه سرعان ما تتوقف دموعهم، بينما يستمر حزنهم لفترة طويلة،  
ويرجع ذلك إلى اعتقادهم بأن النحيب أو البكاء يعد من خصائص النساء فقط، بينما ينبغي  
على الرجال كبت عواطفهم.

\*\*\*\*\*

## الحواشي

(\* باحث وأكاديمي من مصر.

Tacitus-1،The Agricola And The Germania Translated And  
introduction by، H. Mattingly،Etided by، Betty Radis،Penguin  
classics، London، 1985.

وهناك ترجمة عربية للجزء المتعلق ببلاد الجرمان من هذا الكتاب. انظر:

إبراهيم على طرخان، تاكيتوس والشعوب الجرمانية، القاهرة، 1958م.

Caesar-2، j،The conquest of Gaul، Translated by،  
s.a.Handford،Edited by، Betty Radis Penguin classics، London،  
1978.

وهناك ترجمة عربية لهذا الكتاب. أنظر:

- بيتي راديس، فتح بلاد الغال: يوليوس قيصر، ترجمة على زيتون، دمشق، 2003م.
- 3- نورمان كانتور، التاريخ الوسيط: البداية والنهاية، الجزء الأول، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة، 1985م.
- 4- موريس كين، أربا العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة، 1990م.
- 5- محمد محمد الشيخ، الجرمان، الإسكندرية، 1984م.
- 6- موريس بيشوب، أربا في العصور الوسطى، ترجمة على السيد على، القاهرة، 2004م.